تقديم

الدين والعقل الجمعى

أ- الجذور البيولوجية للعقل الجمعى.

تتحرك الحيوانات والحشرات فى حياتها وهجرتها وفق توجيه مشترك، مما يقطع بوجود لغة « تَرَاسُل » ما بين تلك الكائنات.. يستوى فى ذلك الجاموس الوحشى فى أفريقيا وأمريكا، وأسراب الأسماك فى الأنهار والبحار والمحيطات، وأرجال الجراد الطائرة بالترليونات، تعبر الأنهار والصحراوات والبحار.

الحشرات الاجتماعية، كالنمل والنحل، تقوم أعداد من شغّالاتها بدور الكشافة، وحين تعود للخلية، فإنها تهمس (بطريقة ما) للشغالة وتحدد لها مكان الفريسة أو الزّهور دون أدنى خطأ فى التحديد.. فتتواكب أسراب النمل أو النحل على الفريسة أو الزهور.

إن « العقل الجمعى » أو « توجيه الجماعة » لدى التجمعات البشرّية، لا يختلف ـ فى النوع ـ عن التوجيه البيولوجى فى عالم ما دون الإنسان، الفرق ما بين الإنسان وما دون الإنسان، هو فرق فى درجة تعقيد توصيل الرسالة واستقبالها... وكما تقتل شغالة النحل تلك النحلة التى اكتسبت (لسوء حظها) رائحة مختلفة عن رائحة أفراد خليتها، فكذلك يقتل حرّاس العقل الجمعى الدينى « الكفّار » الذين تختلف رائحة أفكارهم عن رائحة الدين العام المسيطر على الجماعة الإنسانية... خصوصا إذا انحطت الجماعة الإنسانية وضعفت، وانحط معها الدين فصار « توتما » (رمزاً أو صنما أو

وثنا)، أمّا إذا قويت الجماعة الإنسانية وارتقت فى معراج الحضارة، فإن الدين عندها يصير فلسفة عامة تسمح بالتنويع واللجوء للهوامش الخاصة.

ب- قتل الخارج عن العقل الجمعى.

فى المناطق الاستوائية كثيفة الخضرة، وبسبب تشابك جذور النباتات، تصبح بعض النباتات فى حاجة إلى مواد عضوية، فتنمو لتلك النباتات زهورٌ ذات مصراعين، فما أن تقع عليها شغالة النحل حتى تمسك بها، وتطلق عليها سوائل خاصة تقوم بهضم النحلة، لسدّ حاجة النبات للمادة العضوية... لكنْ، فى بعض الأحيان، تستطيع النحلة الإفلات، بعد أن تكون قد اكتسبت رائحة خاصة من الزهرة دون ما رحيق، وتعود النحلة إلى خليتها، فتشعر الشغالة برائحتها المختلفة (الكافرة) فتقوم بقتلها.

الجماعة البشرية المتخلفة تتوحّد بالدين وتُصَيِّرُهُ « توتما »، ويصبح الدين كالرائحة المميزة لكل خلية، ويحفزُ الدين ـ بسلطة العقل الجمعى ـ شغّالته المتهوسين والمتعصبين، والمتأثرين بكهنة التوتم الدينى، يحفزهم إلى قتل الكفّار الذين يخرجون عن العقل الجمعى للجماعة:

١- أستشهد « برونو » الإيطالى (سنة ١٦٠٠) فقد رأى الحقَّ فى كلام « كوبر نيكوس » المخالف لأرسطو (وكان فكر أرسطو جزءا من عقائد الكاثوليكية) وحُكِمَ على « برونو » بالقتل حرقا، وأُسْتُتِيب، فلم يتب عن أقواله، حتى « لا يخسر نفسه » كما قال، وأُحْرِق.

٢- مارتن لوثر، كان راهبا كاثوليكيا.. خرج على كنيسة روما، وتزوّج... (والرهبان لا يتزوجون).. لم يُقتلْ.. لأن النزعة القومية الألمانية صارت « رائحة جديدة » أو عقلاً جمعيّا خاصا... وهكذا ظهرت

البروتستنتيّة... ممثلة للعقل الجمعى الألمانى المستنير.

٣- جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) عارض - هو الآخر - أرسطو، فاضطهده كهنة الكاثوليكية وسجنوه، وطلبوا منه الرجوع عن أفكاره (برائحتها المزعجة) فرجع أخيرا عن أفكاره، لعلمه أن رجوعه لن يؤخر ولن يقدم، ولشعوره بأن العقل الجمعى الإيطالى بدأ يتغيّر، ويدرك «حقيقة الدين».

٤- ڤولتير.. نبىّ حديث، قاوم الاستبداد الكاثوليكى، وجَمَعَ الأموال، وحرّض مواطنيه وملوك الدنيا لإعادة محاكمة البروتستانتى «كالاس»... كان لكالاس ابن بروتستانتى أراد أن يلتحق بالسربون، وكان السربون يشترط كاثوليكية الطلاّب.. فعانى ابن كالاس، وتحوّل إلى الكاثوليكية حتى يدخل السربون، ثم شعر بعدم الرضا عن نفسه فانتحر.. فاتهم كهنة الكاثوليكية «كالاس» بأنه قتل ابنه، وعذّبوه وقتلوه، وحكموا على أولاد «كالاس» بأن يصبحوا أرقّاء.... وكان العقل الجمعى الفرنسى، قد بدأ يَنْفِرُ مِنْ سطوة الكاثوليكية والإرهاب الدينى.. وأدان ڤولتير بجهوده، وبجهود بعض ملوك أوربا والمواطنين، المحكمة الكاثوليكية، بل ونجح فى تحويل تلك المحكمة إلى القضاء، وصدرت ضدهم أحكام.

٥- شارلز دارون، وهو أحد من «كفّرهم» رجال الدين، حيث قال: «لم يكن الإنسان عاليا (فى الجنة حيث نشأ آدم) فنزل، بل كان سافلاً فارتقى».. فثار كثيرون من ممثلى العقل الجمعى (فى الأديان السامية الثلاثة) ضد رائحة فِكْرِه، المختلف عن أفكارهم.

٦- الحلاّج المتصوّف المسلم، قُتِلَ، مع أن التشريع الإسلامى يقضى بالاستتابة أولاً، ولكنّ «المقتدر» العباسى ورجال دينه، كانوا حريصين على قتله، إذ كانت «الصوفية» رائحة خاصة، لا يرتاح إليها المتعصبون.

٧- السُّهْرَوَرْدِى، قتله رجال الدين، فى عصر صلاح الدين، لآرائه الصوفية...

٨- كذلك قتل المتعصبون المصريون المحدثون فرج فودة والدكتور الذّهبى (وزير أوقاف سابق).. وحاولوا قتل نجيب محفوظ... ويضطهدون نصر حامد أبو زيد... لأن رائحة أفكار هؤلاء، تشذ عن رائحة فكر المتعصبين.

جـ- العقل الجمعى الدينى يحاول أن يُلزم بما لا يتفق مع العقل العلمى.

● رأت الميثولوجيا المصرية القديمة، فى تعليلها لظهور الآلهة، أن بيضة انفجرت على سطح المياه الأزلية، فخرج منها «أَتُومْ» أول الآلهة المصريين... وكان الإغريق والرومان يحترمون الدين المصرى لأنه يؤمن بقدم العالم، وأن العالم أقدم من الآلهة... وكان الإغريق والرومان يرون عدم المنطقية فى تصوّر حاخامات اليهود أن الآلهة سابقة على العالم، وأن «الله» ليس قبله شئ، وليس بعده شئ.

● يرى الشرّاح المسلمون أن لغة الله هى العربية، وأن العربية لغة أهل الجنة، وأنها أقدم اللغات... وبدهىٌ أن اللغة العربية لغة سامية متأخرة زمنيا عن الساميات الأولى مثل الآرامية والسريانية والحميريّة والأمهريّة ولغة أهل سبأ... والدليل على ذلك أن أسماء الملائكة فى القرآن أسماء عبرانية معدّلة، أحيانا عن المصرية، وأحيانا عن ساميات أخرى.

● عليك أن تذعن، بأن الله ما خلق هذا الكون (الذى لا حدود له) إلا ليقف الله فى الآخرة يراقب المنعّمين فى الجنّة، والمعذبين فى النار.. استمع الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد لقول أحدهم: «إذا كانت الجنة والنار هى الغاية من الكون كلّه.. إذن علينا أن نصدّق ما قالته النملة، يوم أن سقط قطار الصعيد بحمله من السكر.. قالت النملة: إن الله خلق الكون الواسع الذى يمتد لآلاف ملايين السنين الضوئية... ثم خلق الأرض، وجعلها صالحة للإنسان، ومكّن الإنسان من الزراعة، فزرع قصب السكر، واستخرج منه السكر من أجلى أنا... أنا النملة...».

● رأى العقل الجمعى اللاهوتى، منذ الميثولوجيا المصرية، وفى الأديان السامية أن السموات «سَبْعٌ طباقا» بعضها فوق بعض، وكان ذلك فى زمن لم يعرف الصواريخ والأقمار الصناعية وتحليل طيف الإشعاعات، وغير ذلك من إنجازات العلم الحديث.

● عليك أن تذعن للعقل الجمعى اللاهوتى، الذى يصف الله بالظلم[1]، أو على الأقل بمحاباة الله للرجال... فالله ينعم على الآبرار «من الرجال» بالجنة والنعيم والحور العين اللاتى كأمثال اللؤلؤ المكنون، والولدان المخلدين، الذين يطوفون عليهم «على الرجال فقط» بأكواب وأباريق، وكأسٍ من معين، لا يُصدَّعون عنها ولا يُنْزَفُون.. إنا أنشأناهن إنشاءً (الحور العين) فجعلناهن أبكاراً، عُرُباً أتراباً (فى سن واحدة هى سن الشباب) لأصحاب اليمين (من الرجال).. أما النساء من أهل اليمين، فليس ثمة إشارة

(١) هذا الكلام منسوب إلى جولد تسيهر، أحد متقنى اللغة العربية من المستشرقين، بل له كتاب فى القراءات.

لنعيمهن وتحقيق ما يشتهين.. يقول أحد الشرّاح: إن الله قد وَجَد من غير اللائق أن يُعدّ لهنّ «رجالا أترابًا» لمتعتهنّ الجنسيّة؛ مع أن آية الأحزاب تقول: ﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الأحزاب:٥٣].

● يقول روجيه باستيد، أهم دارسى علم الاجتماعى الدينى.. «إن العقل العبرانى والسامى، هُوَ الذى يحاول إلزام أتباعه بالإيمان بصلة أنبيائهم بالله الذى فى السماء، بل تحوّل «جابار» ناقل حكمة «توت» المصرى، إلى جبرائيل العبرانية، وجبريل الإسلام، مع أن سقراط هاجم آلهة الأولمب، ونادى بإيمان الأذكياء بمطلق كونى عاقل، ومع هذا لم يدّع سقراط صلة بالسماء، بل قال «بوحى العقل لقلبه»، ولقد سأله تلاميذه، قبل أن يشرب كأس القتل، عن جسده ودفنه، فقال لأقريطون تلميذه الأكبر: إنكم ستدفنون الجسد، أما الروح فذاهبة إلى مكان يَبعث فيها السرور».

● يرى كثيرون من الدارسين الأوربيين أن الدينين الساميّيْن: اليهودية والإسلام (بعضهم يرى المسيحية بفرقها المختلفة، صورةً حديثة من اليهودية) يميلان إلى العنف والقسوة، حيث أنّ الدعوة فيهما تتجه إلى توجيه مجتمعاتها ـ حين النشأة ـ لغزو جماعات أخرى لتستلب منها الأرزاق.. ويستدلون على ذلك بآيات كثيرة من العهد القديم تدعو إلى حَرْق المدن وإبادة من فيها من ذريات الآخرين، كما يستدلون بآية القرآن فى «الأنفال»: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٧].(٢)

(٢) وهذا أيضا منسوب لجولد تسيهر.

● يرى نقّاد العهد القديم من المحدثين (يهود ومسيحيين) وعلى رأسهم الفيلسوف اليهودى الهولندى الكبير سبينوذا (وهو من جذور برتغالية) أنّ ما ذكر فى العهد القيم عن كثيرين من ملوك وأنبياء العبرانيين، يجعلهم فى وضع « الإبونايمات » أى القوّاد العسكريين والرمزيين للجماعات العبرانية الجائعة فى صحراء شبه الجزيرة العربية، ويسعوْن مع قبائلهم، للدخول فى المناطق الزراعية فى أحواض الأنهار إما عن طريق التسلّل، وإما عن طريق الغزو.

● ويرى هؤلاء النّقّاد أنّ ما يرويه العهد القديم، عن قيادة موسى لهم وعبورهم لبرزخ السويس وغرق فرعون والجيش المصرى، لا سنَد له فى المكتشفات والبرديات التى قرأها الآثاريّون فى أعقاب كشف شمبليون للخطوط المصرية.. فلم تذكر البرديات المصرية ولا المنحوتات الجدارية ولا متون الأهرامات أو التوابيت أى إشارة إلى العبرانيين، إلاّ فى الحديث عن تسللهم إلى منطقة شرق الدلتا وبحيرة المنزلة فى صورة الباجيوميين أو البيوميين، أى اللصوص وقطاع الطرق، وقرأ جيمس هنرى برستد (وهو من أهم دارسى الآثار المصرية) عن أوزير سيف، الذى يُظن أنّه موسى.. وعن هروبه مع بعض بقايا الهكسوس (الهاجا ساسى) فى اتجاه صحراء سيناء.

ويرى جون ويلسون (صاحب : الحضارة المصرية، وهو من تلاميذ جيمس هنرى برستد) أن المصريين يهتمون اهتماما عميقا بالموت والتحنيط والدفن، ولا يعقل أن يُتْرَك ملكُهم غريقا ولا يُدفن ولا يحنط.. وإلا فإنه هكذا يفقد آخرته، والمصريون هم الذين علموا العالم أن هناك آخرةً وسراطا ومحكمةً وميزاناً...

كذلك فإن قصص نوح والطوفان وخلق العالم، تعود فى بداياتها إلى ما يقرب من أحد عشر ألف عام، وهو نفس التاريخ الذى افترضه المصريون.. وكُشِف عن إنسان بكين ساكن الكهوف ويعود تاريخه لأكثر من مليون سنة، كما كُشِف عن إنسان «نياندرتال» وهو يزيد عن مائة ألف عام، وحفريات الإنسان الحديث تعود إلى نفس تواريخ إنسان نياندرتال... أى أنهما كانا متعاصرين، ولكنّ الإنسان الحديث، وهو الأذكى أباد الأقل ذكاء... والكشف عن الزمن فى الحفريات تقدم كثيرا، خصوصا إذا أُستخدم النظامان معاً: كربون ١٤ المشع، وامتصاص الفلورين من التربة.

☆☆☆☆☆